

الفصل السادس

شهداء الحقيقة

تؤكد باربي زيلزرا¹ أن إلحاق أدوات التحقيق الإنساني مثل الدراسات السرديّة والإنسانية في عملية التحليل الصحفي واستخدامها فيها، يساهم في تمحيص مهنة الصحافة، وكذلك في إظهار كيفية بناء سلطة هذه المهنة من أجل شد أعضاء هذه الجماعة إلى بعضهم بعضاً. ومع افتراض أن الخطاب يشكل العالم الاجتماعي وأنه بحد ذاته، وفي الوقت نفسه، أساس للممارسات الاجتماعية الأخرى²، فإنني سأسعى إلى تبيان أن النصوص الجديدة هي رسم لحدث الحرب، في الوقت الذي تشكل هذه النصوص انعكاساً لهوية الصحفية وممارساتها.

يركز التحليل التالي بوجه خاص على عملية تهجين الأدوار والخطابات، كما هو مبين في النصوص المقتبسة من أربع من الصحف المهاجرة كنماذج لوسائل الإعلام المهجنة. يهدف هذا التحليل إلى تقديم أمثلة عن تهجين الأدوار (المراقب الموضوعي والشارح لما يجري

في الواقع). يؤدي المراسلون (أو المؤسسة الإخبارية ككل) كما تبين هذه النصوص الإخبارية، دور الوسيط بين مصادر الأخبار من جهة، وبين جمهور الأخبار من جهة أخرى. كما يساهمون في توفير أدوات مهمتها تسكين الواقع الاجتماعي بواسطة استعمال "ملصقات من قصاصات حول أحداث"³ جرت في مناطق متفرقة من العالم، وتم تجميعها ضمن وتيرة مشتركة. تساهم النصوص الإخبارية إذاً، في تماسك الرواية الصحفية كمهنة⁴.

يعتمد التحليل التالي في معرض اتخاذ المسار الخاص به الرأي القائل إن الهوية تتشكل في أثناء عمليات التشابه والاختلاف⁵. وهذا يعني أن الصحفيين العرب يمكن أن تمنح لهم بشكل استطرادي هوية واحدة ذات سمات محددة يفترض أنها تربط بين العرب جميعاً، في الوقت الذي توضع هذه الهوية مقابل (الأخر) المناقض؛ أي بصفتهم صحفيين غير غربيين. وهكذا، فلكي تثبت هذه العلاقة موقعها الذي تحدده السمات المشتركة، فهي بحاجة إلى أن يتم وضع تعريف لها مقابل هوية (الأخر). يناضل هؤلاء الصحفيون إذاً من أجل "تثبيت" هذه الهويات "وربطها فيما بينها ضمن علاقة محددة مع الآخرين." "يترادف كل موقع من المواقع المخصصة للصحفيين مع جملة من القواعد والتوقعات لما يمكن أن يفعلوه أو يتفوهوا به. وبما أن الصحفيين "مشتتون" من خلال امتلاكهم عدداً كبيراً من الهويات المختلفة - فمنهم الصحفي والمرأة والمتعلم والوطني - فإن ذلك يزيد من حدة الصراع في خطاباتهم.

عملياً، يمكن أن يمنح مهنيو الأخبار العرب هوية "الصحفيين" التي تتسم بسمات محددة، وترتبط عالمياً فيما بينهم وبين آخرين يعملون في المهنة نفسها؛ في الوقت الذي ترسم الحدود بين الصحفيين بحسب موقع كل منهم في الهرمية المهنية العالمية. تستند الهوية المهنية إلى "جدلية التعريف: أي كيف نعرّف أنفسنا، وكيف يعرفنا الآخرون؛ هذا بالإضافة إلى التفاعل المستمر بين الجانبين في عملية التعريف الاجتماعي"⁶.

ما أود التأكيد عليه في التحليل الآتي هو الوسائل التي بواسطتها "يمكن للتصنيف الخارجي أن ينظر إليه بصفته تصنيفاً شرعياً،" أي كيف يمكن للصحفيين العرب أن يتبنوا الهوية نفسها التي حددها لهم نظراؤهم الغربيون في الوقت الذي يناضلون من أجل إعادة موضعة هذه الهوية، ومن ثمّ مقاومة فكرة وضعهم ضمن بوتقة لا سبيل لهم للخروج منها. وكما أؤكد في وقت لاحق من هذا التحليل، فإن بعض المحطات الإعلامية العربية يمكن أن تقوم بنشاط ملحوظ من أجل إطلاق أوصاف جديدة على الصحافة العربية. والمهم في هذا الصدد يتجلى في مسألتين: هما الزمن والفضاء⁷، مثل موقع الصحفيين العرب إزاء الصحفيين الغربيين. وكما سأبين لاحقاً، فإن القصص الإخبارية تظهر حركة دينامية في تنقلها من فضاء إلى آخر، ومن زمن إلى آخر؛ ولقد أصبحت هذه الدينامية في واقع الأمر جزءاً لا يتجزأ من ملامح الدور الحديث الذي يضطلع به كل من الصحفي العربي والمراسل الصحفي العربي. بالإضافة إلى ما تقدم، يشكل استحضار بعض التواريخ التذكارية، كما سأبين لاحقاً، عاملاً حاسماً في تأييد رواية إحدى "الجماعات التفسيرية" العالمية من الصحفيين.

ولكي يكون بالإمكان حل الجدل الدائر حول مفهوم التعريف بين الصحفيين العرب والغربيين، فإنني أشير إلى الحالات التي تمت العودة فيها إلى المؤسسات الإخبارية العربية أو الغربية في النصوص الإخبارية العربية. يتم تصنيف هذه الحالات تبعاً للدور المناط بالصحفيين العرب أو الغربيين؛ أي بصفتهم كلاب حراسة. تتجلى إحدى النتائج المباشرة لهذا النوع من التحليل، كما سأظهر تالياً، في تحدي نظرية الهيمنة كما ظهرت في الدراسات المتعلقة بوسائل الإعلام العربية. فالهيمنة لا تقتصر من وجهة نظري على الاحتكار المتمثل في الممارسات التي تقوم بها بعض وكالات الأنباء العالمية فيما يتعلق بعملية جمع الأخبار. لكن الهيمنة تتبدى في السلطة التي توزع توزيعاً غير متوازن بين الصحفيين العرب والغربيين بالرغم من أن الطرفين ينتميان بصورة رئيسة إلى جماعة تفسيرية واحدة. إضافة إلى ذلك، يحدد توزيع السلطات بين مختلف المؤسسات الإخبارية مقاييس الفضاء الإعلامي العالمي الذي لم تعد تسيطر عليه قلة من اللاعبين بعد الآن؛ لكنه مع ذلك، لا يزال يشهد صراعاً بين مختلف المؤسسات الإعلامية في الفضاءين الشرقي والغربي من أجل إعادة تحديد مواقعها في الميدان العالمي.

أقوم بتجميع مواد التحليل التالي حول موضوعات محددة أو أدوار بعينها كانت تتحلّى بالوضوح في النصوص الإخبارية، وسيتم استقطاع مقتطفات منها وعرضها لاحقاً. ولكي أوفر بعض المساحة الضرورية، تمت ترجمة هذه المقتطفات إلى الإنجليزية بدلاً من تقديمها باللغة العربية أولاً ومن ثم، اتباعها بترجمة إلى الإنجليزية. أما الموضوعات

الإجمالية فإنها متسقة مع الأدوار التي يقوم بها الصحفيون باعتبارهم رواة موضوعيين للواقع، ومحققين يجهدون من أجل إظهار الحقيقة، كما تمت مناقشة هذا الأمر في الفصل السابق.

أسارع هنا إلى التأكيد على أن النصوص الإخبارية التي تم انتقاؤها كنماذج في هذا المجال يمكن أن تحلل في واقع الأمر بطرق لا تعد ولا تحصى. لكنني اخترت أن أقصر هذا التدريب على دور الصحفيين (العرب والغربيين) كما هو مبين من الزاوية النصية. يظهر التحليل التالي بشكل عام انتشار ثلاثة أدوار بالتحديد، كما هو مبين في المقاطع التالية. تتراوح هذه الأدوار بين (1 دور المشاهد و2) المدقق، و(3) شهيد من أجل الحقيقة.

كما سأبين فيما يلي، فقد تمثلت هذه الأدوار في النصوص الإخبارية ليس فقط من أجل أن تعكس هوية الصحفيين المحليين مقابل هوية الصحفيين القوميين في الميدان الصحفي العربي؛ بل من أجل أن تعطي إشارة إلى موقع كلا الطرفين إزاء نظرائهم العالميين كما في محطة CNN. أبين أيضاً كيف انتشرت هذه الأدوار في الصحف التي تمت دراستها وتحليلها، حيث تبين أن اثنتين من تلك الصحف تبدو وكأنهما تقضلان الدور الأول، بينما بدا وكأن الصحفيين الآخرين تركزان على الدور الثاني. إلا أن جميع تلك الصحف تبنت الدور الثالث كوسيلة من وسائل ربط الصحفيين العرب مع نظرائهم في البلدان الأخرى ضمن جماعة تفسيرية واحدة.

الصحفي بصفته مشاهداً

تتمثل إحدى أهم مهام الصحفي في استعراض " واقع " الحرب، وتوثيق مسار الأحداث؛ بالإضافة إلى التركيز على الضحايا والانتهاكات التي تحدث في أثنائها. تُعدُّ عملية التوثيق شرعية من خلال استعراضها للتفاصيل والأرقام؛ على سبيل المثال، تحديد الوقت الدقيق الذي استغرقت فيه قوات التحالف من أجل قيامها بالتحرك، والحجم الدقيق للقنبلة، والتاريخ والزمن، وهكذا. وكما أشار غامسون، فإن " الحقائق ليس لها معنى بحد ذاتها. إنها تكتسب معناها من خلال وضعها ضمن إطار أو قصة يتم ترتيبها وإعطاؤها اتساقاً، يتم في أثنائه اختيار بعضها من أجل التأكيد عليها بينما يتم إهمال بعضها الآخر"⁸. إن استخدام الحقائق والأرقام يشكل في الواقع واحدة من الاستراتيجيات الموضوعية في عملية نقل الأخبار؛ وقد أظهرت الصحف التي تضمنتها هذه الدراسة بعض أوجه الشبه في استعمال " الحقائق البادية للعيان " كجزء لا يتجزأ من عملية قيام تلك الصحف بنقل الأخبار. هذه الحقائق والأرقام تدل على مدى حيادية المراسل الإخباري أو الصحفي الذي يعمل بصورة جزئية كمنعلق على الخبر، ولكنه أيضاً يعمل بشكل جزئي بصفته " كاتب اختزال " ينقل التفاصيل الدقيقة لما يجري للقارئ كما هو مبين في الفقرة التالية:

صحيفة الشرق الأوسط (9 نيسان، أبريل، 2003)

قال مسؤول أمريكي إن وكالة الاستخبارات الأمريكية تلقت معلومات من " مصدر في بغداد " يؤكد أن صدام وولديه

سوف يجتمعون بمسؤولين أمنيين ومخبراتيين في مبنى بحى المنصور. وبعد خمس وأربعين دقيقة لتلقى هذه المعلومات، أطلقت القيادة الأمريكية الوسطى في قطر صاروخاً من طراز B1 يحمل أربع قنابل زنة كل واحدة منها 2000 رطل على المبنى في الساعة الثالثة عصراً يوم أول أمس بالتوقيت المحلي. وقال المسؤول: "إذا كان صدام في ذلك المبنى فإنه على الأرجح في عداد الأموات الآن". ووصف المسؤول هذه المعلومات بأنها "الأكثر دقة" حول صدام وولديه منذ بداية الحرب، حيث وقعت غارة أخرى على مجمع سكني مدني آخر في بغداد قبل إن صدام وولديه كانوا يختبئون فيه في 20 آذار، مارس. وقال أيضاً إنه لا بد من انتظار يوم أو اثنين قبل التأكد من نتائج هذه العملية، وإن الغارة وقعت بعد تتبع اتصالات قام بها قصى.

يعيد الصحفيون هنا سرد حادثة الإطلاق بأقصى ما يستطيعون من الأمانة؛ فقد ذكروا على سبيل المثال، حلقة القيادة: "القيادة الأمريكية الوسطى في قطر" بدلاً من مجرد الإشارة إليها باستخدام عبارة "القوات الأمريكية"، والتدرج في احتساب الخطوات التي قامت بها هذه القيادة: أولاً، تلقت المعلومات، ومن ثم تحركت فوراً (بعد خمس وأربعين دقيقة)؛ وبعدها أطلقت صاروخاً من طراز B1 على مبنى بعينه وفي وقت محدد (الثالثة عصراً بالتوقيت المحلي). تم الإسهاب في الاقتباس من تصريحات المسؤول، وهو ما أضفى نوعاً من الشرعية على التقرير: "إذا كان صدام في ذلك المبنى فإنه على الأرجح في عداد الأموات الآن". هذه الحادثة تم ربطها بحادثة أخرى في أثناء الحرب

"قيل إن صدام وولديه كانوا يختبئون فيه"، وقد تم تأريخ هذه الحادثة من أجل التأكيد على دقة التقرير (20 آذار، مارس). باختصار، هناك بعض التفاصيل التي اختيرت من أجل إضفاء مصداقية على التقرير الصحفي في وصف العمليات العسكرية إلى ما هنالك: عدد الأشخاص المصابين أو القتلى، ونوع الطائرات (A 10 على سبيل المثال)، ووزن القنبلة، والمسافة الدقيقة (بالكيلومترات) والتوقيت (خلال دقائق).

المعرفة إذًا، هي أساس التمثيل "الحقيقي" للواقع، وللمصادر المختلفة الموجودة من أجل الحصول عليها. مهمة الصحفي هي الربط بين المصادر المختلفة، ثم بناء تمثيل حقيقي لمسار الحرب من خلال الإشارة إلى هذه المصادر بالذات. لكن هذا التمثيل هو هرمي بالأساس؛ ذلك أن بعض المصادر تبدو وكأنها معلومات لا يرقى إليها الشك، بينما تلقي بعض المعلومات الأخرى بظلال من الشك على صحتها، وهو ما يستدعي وجوب قيام الصحفي بتدقيق مدى صحتها. في الاقتباس المذكور أعلاه، يتضح أن المصادر العسكرية تقدم معلومات دقيقة وموثوقة بسبب كونها في داخل غمار المعركة. هذه المصادر ليست موثوقة وحسب، إنها أيضاً مصادر قوية لدرجة أنها بالتعاون مع مؤسسات أخرى (كالمخابرات) تستطيع إقامة شبكة من المخبرين لتحقيق هدفها: "تلقت وكالة الاستخبارات المركزية معلومات من (مصدر في بغداد) يؤكد أن صدام... (لاحظوا أن عبارة) "مصدر في بغداد" مكتوبة ضمن إشارتي اقتباس مما يرفع من درجة الإثارة في هذه الجزئية الإخبارية.

تبدأ الجزئية الإخبارية المذكورة أعلاه بتحديد خطوط التاريخ (الكويت وموسكو ولندن) وبأثنين من الخطوط الثانوية (من مراسلين في واشنطن وباريس)، وهي بذلك تبدي كماً من الدينامية في تجميع هذه الأخبار وتقديمها. زيادة على ذلك، تتعزز هذه الدينامية بواسطة الانتقال السريع بين مناطق زمنية مختلفة (الثالثة عصرًا بالتوقيت العراقي) المحلي، وهي سمة تتصف بها تقارير إخبارية أخرى:

صحيفة الشرق الأوسط (19 آذار، مارس، 2003)

في الوقت الذي كان العالم ينتظر الضربة الأولى في الحرب، سارعت القيادة العراقية لرفض الإنذار... الذي ينتهي غداً في الساعة الواحدة صباحاً، بتوقيت غرينتش...

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

قال فليشتر إن موعد الإنذار سينتهي في الساعة الثامنة من هذا المساء بتوقيت واشنطن (أو الثالثة صباحاً بتوقيت القاهرة)...
... وفي الجانب العراقي، أعلن التلفزيون الرسمي أمس عن عقد جلسة برلمانية طارئة في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم بالتوقيت المحلي...

يشار إلى أن الإنذار الذي تم توجيهه إلى الرئيس العراقي السابق ضمن مناطق متباعدة زمنياً (توقيت القاهرة وبغداد وغرينتش وواشنطن)، وهو ما يجعل من الصحفيين مجموعة من "العالميين" الذين يتحركون بحرية ويسر ضمن مناطق زمنية ومكانية مختلفة.

إضافة إلى ذلك، تمثل المناطق الزمنية الواقع تمثيلاً هرمياً أيضاً؛ وهكذا، فإن الأحداث يتم توقيتها بحسب مناطق محددة بعينها (على سبيل المثال، بحسب توقيت غرينتش وليس بحسب توقيت ماليزيا). إن التمثيل الذي يلي هذا التوقيت إذاً، يؤكد هذه الهرمية لصالح النظر إلى أحداث العالم من زاوية زمنية بعينها، بدلاً من ترجمة هذه الأحداث إلى مواقيت محلية.

ينعكس الخلاف بين هذين الزمنين (المحلي والعالمي حيث إن الثاني مكرس لمناطق وفضاءات زمنية محددة) أيضاً في القنوات الفضائية العربية، حيث يعلن توقيت البرامج المختلفة عادة بحسب توقيت غرينتش ومكة المكرمة. إضافة إلى ذلك، تعلن قناة الجزيرة أحياناً برامج بتوقيت مكة المكرمة معززة بذلك نقطة مرجعية (عربية) مركزية بالرغم من أنه يقال إن عدداً كبيراً من مشاهديها ينتمون إلى جماعات تعيش في المهجر.

تتعرز دينامية التحرك كما ذكرنا سابقاً، في خطوط التاريخ المتعددة والخطوط الثانوية، مؤكدة بذلك دور الصحفيين في إدارة الفضاءات المتعددة. قامت صحيفتا الشرق الأوسط والحياة على وجه الخصوص بتعزيز هذه الدينامية من خلال خطوط ثانوية متعددة (وليس فقط من خلال خطوط التاريخ)، وقد أكدنا بذلك الدور (الجديد) للمراسلين كمصادر موثوقة للمعلومات والمعرفة، وكذلك على استقلاليتها كمؤسستين إعلاميتين لهما شبكاتهما ومصدرهما الخاصة بهما.

يؤكد النص الإخباري أيضاً هذه السرعة من خلال التحرك الدائم بين فضاء وآخر، كما هو مبين في المقطوعة التالية التي تبدأ بالولايات المتحدة محيطة القارئ بالإنذار الذي وجهه بوش (والذي كان على وشك الانتهاء)، ثم تنتقل إلى فضاءات جغرافية أخرى.

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

أما بالنسبة لردود الفعل العالمية على خطاب بوش، أصدرت كل من فرنسا وروسيا تحذيراً شديداً للهجة أمس من استخدام القوة العسكرية ضد العراق... من ناحيته، قال الرئيس الفرنسي إن الحرب على العراق غير قانونية... وفي بيجين، قال رئيس الوزراء الجديد إن بلاده لن تتخلى عن جهودها الرامية إلى حل الأزمة العراقية بطريقة سلمية... أما في بريطانيا، فقد استقال وزيراً الصحة والشؤون الداخلية احتجاجاً على السياسة المتشددة لحكومة رئيس الوزراء طوني بليير...

تم نشر هذا الخبر بواسطة خط التاريخ العام (مدن عالمية) وخط ثانوي عام (مراسلو صحيفة الأهرام)؛ وقد عزز هذا من أهمية الهوية المؤسساتية لصحيفة الأهرام بدلاً من التركيز على أسماء مراسلين بعينهم، الذين ينتشرون في فضاءات متباعدة من أجل رصد ردود الفعل على الحدث (وهو في هذا السياق: الإنذار). يظهر هذا النص سرعة الانتقال بين فضاءات جغرافية متباعدة من الولايات المتحدة إلى فرنسا إلى الصين إلى بريطانيا ("قال الرئيس الفرنسي... وفي بيجين قال رئيس الوزراء الجديد... أما في بريطانيا استقال... وزيراً...") إن

عبارات مثل " وفي بيجين " تستخدم من أجل القيام بوظيفة مزدوجة: فهي توفر شكلاً من أشكال التماسك في الوقت الذي تشير إلى نقلة في الفضاء والموضوع. فيما يلي مثال آخر:

الشرق الأوسط (27 آذار، مارس، 2003)

تحرك آلاف من المقاتلين في وحدات الحرس الجمهوري و" فدائيي صدام " من بغداد... لوقف تقدم القوات الأمريكية باتجاه العاصمة العراقية. وفي الوقت الذي دارت فيه معركة شرسة يوم أمس من أجل السيطرة على جسر قرب مدينة النجف، اعترف البنتاغون أن القوات العراقية دمرت عدداً غير محدد من الآليات... وفي إشارة إلى ازدياد حدة الضغوطات على القوات الأمريكية، أعلن البنتاغون أن الفرقة الرابعة سوف تتحرك اليوم من الولايات المتحدة في طريقها إلى العراق. من ناحية أخرى، علم أمس أن محامين وخبراء قانونيين يرافقون القوات الأمريكية لمناقشة فرض أحكام الطوارئ. من ناحية أخرى، رفض متحدث باسم الإدارة الوسطى في القوات الأمريكية التعليق على الهجوم الصاروخي على حي شعبي شمال شرق بغداد...

في المقطوعة الواردة أعلاه، يشير التقرير الإخباري إلى نقلة بين الفضاءات الجغرافية والزمنية. فهو يبدأ من مشهد حالي في بغداد، حيث يستعد المقاتلون العراقيون لمواجهة القوات الأمريكية، ثم يتحرك باتجاه الماضي مذكراً القارئ بمعركة وقعت قرب مدينة النجف، ويقدم تعليقاً من البنتاغون في الولايات المتحدة الأمريكية.

في اللغة الإنجليزية، يمكن استخدام كلمات مثل "لا يزال" و "لكن"، أو عبارات الجر كدالات أساسية من أجل تقديم جمل استدرائية، أو من أجل إحداث نقلة في الموضوع أو المشهد. أما في اللغة العربية، من ناحية أخرى، فلكي يتم التأكد من وجود التماسك بين الجمل في النصوص الإخبارية، لا يكفي المرسلون باستعمال حرف العطف "و" كوسيلة وحيدة لتحقيق ذلك. تدل عبارات مثل "في بيجين" و "في بريطانيا"، على استراتيجيات التماسك التي يتبعها الصحفيون والمتمثلة في الانتقال إما إلى موضوع آخر ذي صلة، أو الانتقال إلى متحدث آخر أو مشهد آخر. تم تقديم أحد الشروح الكفوة حول استخدام هذه العلامات في دراسة لغوية أجريت مؤخراً حول لغة الخطاب الإخباري باللغتين العربية والإنجليزية⁹. تشير هذه الدراسة إلى بعض الملامح المهمة التي تسم هذه العلامات مثل "من ناحية أخرى" و "من جانبه/ها" والتي ترد في بداية الجملة. إن وجود مثل هذه العبارات ليس مجرد تنوع أسلوبية؛ بل تفرضه في واقع الأمر بلاغية الخطاب الإخباري بصفته نمطاً، إلى حد أن محاولة حذفها يمكن أن ينتج عنه خلخلة في روابط التماسك داخل النص الإخباري.

إن عبارات مثل "من ناحية أخرى"، أو "في إشارة إلى ازدياد حدة الضغوطات" (كما هو مبين أعلاه)، تدل على سرعة دينامية في الانتقال من الحدث والتعليق عليه إلى حدث وتعليق آخرين؛ وهذا يؤكد دور الصحفي "كمشاهد"، أي كشخص يراقب الأحداث من علٍ ويدون مجرياتها؛ ويحافظ في الوقت نفسه على القدرة على التحرك باتجاه

الخلف والأمام في المكان والزمان من أجل أن يضيف إلى هذا الرصد للواقع. هذه الفضائات التي يتم تحديدها سلفاً، تقتصر على الميادين السياسية والعسكرية، وعلى جمع المعلومات والتعليقات من أصوات لها ثقلها ووزنها هناك. لكن الصحفيين ليسوا موجودين هناك فقط من أجل نقل ما يصرح به "المسؤولون"، بل من أجل طرح علامات استفهام حول المدى الذي يمكن الاعتماد فيه عليهم. هنا تتشكل هوية الصحفي كمدقق و"كلب حراسة".

الصحفي بصفته مدققاً

قبل انتهاء مدة الإنذار الذي تم توجيهه إلى صدام وعائلته، أعلنت العائلة المالكة السعودية أنها لن تشارك في التحالف الذي شكلته الولايات المتحدة، مبررة ذلك كما ورد في خطاب رسمي موجه إلى الأمة (كما ورد في صحيفة الشرق الأوسط في التاسع عشر من شهر آذار، مارس، سنة 2003) برغبتها في حماية الشعب السعودي والمصالح السعودية. ومع ذلك، فإن البيانات الصادرة عن العائلة المالكة السعودية لم يتم تقبلها بمعناها الظاهري، كما أثبتت شكوك حول مصداقيتها.

صحيفة القدس العربي (19 آذار، مارس، 2003)

سارعت الرياض إلى الإعلان أنها لن تشارك في الحرب التي يجب وضع حد لها من خلال تطبيق القرار 1551.

الإعلان تقارير أمريكية إعلامية وصحفية أكدت أن الطائرات الأمريكية سوف تستخدم القواعد الموجودة في السعودية في

المعارك، وأن الأراضي السعودية ستكون مشرعة من أجل العمليات الإنسانية واللوجستية للقوات الأمريكية داخل العراق.

وقالت التقارير إن القوات البريطانية سوف تتحرك باتجاه البصرة، وأنها سوف تسيطر عليها على منطقة الجنوب بأسرها، في حين أن القوات الأمريكية سوف تتحرك مباشرة باتجاه بغداد...

التصريح الذي صدر عن "الرياض"، وفي الرياض يتناقض مع التقارير الإعلامية الأمريكية التي أكدت مشاركة السعودية في الحرب من خلال السماح للقوات الأمريكية بالعمل من داخل الأراضي السعودية. وهكذا فقد انتقلت المصادقية من البيانات التي أدلى بها السياسيون، إلى التقارير التي تناقلتها وسائل الإعلام العالمية، معززة بالتالي، حجم رأسمال هذه الأخيرة كمصادر للمعلومات الموثوقة¹⁰ (التي تتجاوز أحياناً أي شكوك حول نوع المصادر أو الخطابات التي تستقي منها هذه المعلومات). وهكذا، تمت الإشارة إلى تقارير وسائل الإعلام العالمية والاقتباس منها من دون التأكد من مصداقيتها أو الخطاب الذي كانت تصوغه. وبالرغم من أن صحيفة القدس العربي تشكك أحياناً في التصريحات الصادرة عن المسؤولين الأمريكيين (انظر المقطوعة التالية) فإنها لم تثر شكوكاً حول مصداقية وسائل الإعلام العالمية مثل CNN و Reuters و AFP و BBC.

صحيفة القدس العربي (27 آذار، مارس، 2003)

قالت محطة CNN التلفزيونية إن أرتالاً طويلة من وحدات الحرس الجمهوري العراقي غادرت بغداد مساء أمس (الأربعاء) متوجهة نحو القوات الأمريكية المتمركزة قرب مدينة النجف.

وقالت المحطة استناداً إلى مراسلها الذي يرافق الفرقة السابعة: "إن رتلاً طويلاً من ألف من الوحدات العراقية المؤلفة بما في ذلك العربات والمدافع قد غادرت بغداد متوجهة نحو مدينة النجف".

التقارير التي ذكرتها محطة CNN (استناداً إلى مراسلها) قدمت رأياً "لمُشاهد" موثوق لمشهد الحرب كما حدثت في أرض المعركة، وكما خططت لها عقول الإستراتيجيين. عرضت صحيفة الأهرام رأياً مشابهاً لما عرضته صحيفة القدس العربي:

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

في خضم التنبؤات المتزايدة حول توقيت شن الحرب، توقع المراسل العسكري لمحطة BBC أن العمليات العسكرية سوف تبدأ في الساعات الأولى من يوم السبت القادم، وقال إن القيادة العسكرية تفضل تأجيل موعد الضربة إلى حين انحسار ضوء القمر واشتداد الظلمة في الليل؛ لأن ضوء القمر عندما يكون بدرًا في الأيام القليلة القادمة ليس مناسباً من حيث التوقيت للعمليات الأرضية. وقال المراسل إنه من غير المناسب البدء في

العمليات العسكرية يوم الجمعة لأنه عطلة المسلمين الدينية.
بالتالي، فإن أكثر الحسابات دقة التي تأخذ في الحسبان الحال
الجوية والعواصف الشديدة المتوقعة، تشير إلى أن فجر يوم
السبت سيكون توقيتاً مناسباً للبدء في هذه العمليات.

هنا، يقوم مراسل BBC بإجراء حسابات، ويوازن بين المعلومات
الواردة من أجل صياغة تكهن حول سيناريو مستقبلية (" توقع
المراسل العسكري لمحطة BBC أن... "). المعلومة التي أوردتها تم
قبولها من دون أي تشكيك بمصداقيتها؛ لأن ما أتى به لم يكن يستند
إلى افتراض محض، بل إلى دراية بالتكتيكات العسكرية، إضافة
إلى إلمامه بالتقاليد المحلية (" القيادة العسكرية تفضل تأجيل موعد
الضربة إلى حين انحسار ضوء القمر... لأن ضوء القمر عندما يكون
بدرًا... ليس مناسباً من حيث التوقيت للعمليات الأرضية "). إضافة
إلى ذلك، يوازن المراسل بين الخطة السياسية المعلنة للبدء بالعمليات
العسكرية بعد انتهاء المدة الزمنية للإنذار مباشرة وبين معرفته
بالتقاليد المحلية: نظراً لأن الإنذار ينتهي بحلول " يوم الجمعة...
العطلة الدينية للمسلمين " ، فإنه يقرر أن يتجاهل احتمال البدء
بالعمليات الحربية يوم الجمعة. بدلاً من ذلك، يطرح تكهنًا آخر يستند
إلى " حسابات دقيقة " تتضمن العديد من العوامل " التي تأخذ في
الحسبان الحال الجوية والعواصف الشديدة المتوقعة " ، وهو ما أدى به
إلى الاستنتاج أن " فجر يوم السبت " سوف " يكون توقيتاً مناسباً للبدء
في هذه العمليات " .

تؤدي مصادر وسائل الإعلام الأجنبية دور شاهد العيان في قلب الأحداث، حيث ترسل من هناك إلى الوطن تفصيلات أحداث تقوم بالكشف عنها؛ كما أن شهاداتهم تضيف إلى عملية استيعاب أسباب شن الحرب التي يتم إيصالها إلى المتلقي عبر التعبيرات الجسدية.

صحيفة الأهرام (26 آذار، مارس، 2003)

بعد ثلاث ساعات من القتال الشرس في مدينة الناصرية، استطاعت قوات المارينز الأمريكية عبور الجسر على نهر الفرات... وقال مراسل APF إن رائحة اللحم البشري كانت منتشرة في سماء المدينة التي تقع على بعد 375 كيلومتراً من بغداد.

... دعا الرئيس العراقي صدام حسين القبائل العراقية إلى مقاومة القوات الأمريكية والبريطانية... وحثها في خطاب تم بثه على التلفزيون العراقي...

... قتل المارشال الجوي البريطاني برايان باريدج من احتمال تحقيق نصر عسكري سريع، ورفض في تصريحات أدلى بها إلى محطة BBC نية بريطانيا في زيادة عدد قواتها...

تعززت شهادة مراسل APF بالتجربة الجسدية التي تحدث عنها حول "شم" و"مشاهدة"، عندما كان هذا المراسل يتجول في مدينة الناصرية حيث شم رائحة "اللحم البشري"، ورأى الدخان المتصاعد "ينطلق إلى أعالي السماء؛ وقد أجمل هذه التجربة الجسدية في الرواية الموضوعية

التي ضمّنها تقريره الصحفي من خلال إضافة تفصيلات على الموقع الدقيق للمدينة (" التي تقع على بعد 375 كيلومتراً من بغداد ").

وفي الوقت الذي كان بإمكان وسائل الإعلام الأجنبية الوصول إلى مصادر محلية وأجنبية، فإن وسائل الإعلام المحلية من ناحية أخرى، تم استخدامها بشكل رئيس للقيام بمهمة قنوات اتصال، أو التصرف كمنادين متجولين في البلدة من أجل نقل رسائل يجب إيصالها إلى المواطنين. وهكذا فقد استخدم صدام حسين وسائل الإعلام المحلية من أجل بث رسائل للقبائل العراقية (" حثها في خطاب تم بثه على التلفزيون العراقي ")، كما استعملها كمنصة أراد من خلالها استنهاض همم العراقيين. كما استخدمت إستراتيجية مماثلة من قبل ساسة عراقيين آخرين:

صحيفة القدس العربي (27 آذار، مارس، 2003)

... أعلن الناطق [العراقي] باختصار على شاشة التلفزيون العراقي حول العمليات العراقية خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، أن طائرة بريطانية أسقطت بالقرب من البصرة، وأن صاروخاً من طراز (صمود) أطلق على قاعدة السالم الجوية في الكويت.

ظهر الناطق العراقي على شاشة التلفزيون، بالرغم من أن ظهوره كان وجيزاً من أجل الإعلان عن آخر مجريات الحرب، وعن التقدم الذي تقوم به المقاومة العراقية، مستخدماً وسائل الإعلام كمنصة

صحفية يخاطب من خلالها الأمة. أدت بعض وسائل الإعلام العربية القومية الدور نفسه:

صحيفة القدس العربي (19 آذار، مارس، 2003)

... وقال [ناجي] صبري [وزير الخارجية العراقي السابق] في مؤتمر صحفي عقده في العاصمة العراقية، الذي بثته قناة الجزيرة الفضائية على الهواء مباشرة، "لم نطلب مساعدة من أحد، لكننا نقول للدول العربية إن أمنها مهدد".

عقد وزير الخارجية السابق مؤتمرات صحفية أثارت اهتمام وسائل الإعلام الإقليمية كقناة الجزيرة على سبيل المثال، التي نقلتها على الهواء مباشرة. لا بد من الإشارة إلى عبارة فيها شيء من الحذر هنا: يرى بعض الباحثين¹¹ أن رغبة وسائل الإعلام الإخبارية، وعلى الأخص التلفزيون، في نقل المؤتمرات الصحفية على الهواء مباشرة مؤشر على استخدام وسائل الإعلام لبث القيم والأفكار المهيمنة. لكن الصحفيين العاملين في القنوات الفضائية العربية يبررون الاتجاه نحو إذاعة المؤتمرات الصحفية كجزء من وظيفة السلطة الرابعة التي تقضي بمنح مساحة للاعبين السياسيين من مختلف المشارب والتوجهات. فقد قال الحبيب الغريبي، المذيع في محطة أبو ظبي إن محطته تسعى إلى نقل المؤتمرات الصحفية العربية والأمريكية على الهواء في أثناء فترة الحرب، موفرة أوقاتاً متساوية لكلا الطرفين من أجل التأكيد على حيادية المحطة. الرأي نفسه أكده المذيع فيصل قاسم من محطة الجزيرة، حيث قال إن جزءاً من مهمة القناة هو توفير منبر لجميع المتحدثين¹².

باختصار، بينما يستخدم السياسيون العرب وسائل الإعلام المحلية من أجل بث المعلومات، فإن وسائل الإعلام الأجنبية تقوم بتدقيق البيانات والتصريحات الصادرة وإجراء تقويم لها. وفوق هذا وذاك، يمكن أن يشير كل ما تقدم إلى الهرميات الموجودة داخل "الميدان الصحفي"، ومن ثمّ، فإن الخطابات السياسية ليست هي وحدها التي تنساب إلى داخل هرمية السلطة (حيث إن التصريحات التي يدلي بها سياسيون أمريكيون تحتل مرتبة أعلى من التصريحات التي يدلي بها نظراؤهم العرب)، بل إن الخطابات الإعلامية أيضاً محكومة بالسلطات داخل الميدان الصحفي العالمي نفسه. يمكن أن تتبوأ الخطابات الإخبارية الصادرة عن محطة CNN موقعاً أكثر أهمية في هذا الميدان بالمقارنة بالخطابات التي تبثها المحطات الإعلامية العربية - من هنا نستطيع فهم السبب وراء الاستشهاد بهذه الخطابات في أغلب الأحيان كمصادر موثوقة للمعلومات. يرى فندي أن وسائل الإعلام الأجنبية ترتبط عادة "بمعلومات موثوقة" وهذا هو السبب الذي يجعل المشاهدين العرب يثقون بالمحطات الأجنبية مثل محطة BBC أكثر من محطاتهم المحلية أو الوطنية، أو كما وصفها هو بالقول: "ليست المسألة أن العرب لا يثقون بوسائل الإعلام لأنها أجنبية: المسألة في حقيقتها هي أن العرب كجميع الناس، يختارون ما يثقون به، وما لا يثقون به"¹³.

وبعكس كل من صحيفة القدس العربي وصحيفة الأهرام، كانت صحيفتا الشرق الأوسط والحياة كما أسلفنا، حريصتين على نشر الخطوط الثانوية المزدوجة التي يبعث بها مراسلوهما؛ ومن ثمّ فقد

استطاعت تعزيز الدور الذي تضطلعان به كجامعتين للأخبار. ولكي يتم تعزيز هذا الدور أكثر فأكثر، تم الاستغناء عن الإشارة إلى المؤسسات الإعلامية الأخرى (الأجنبية)، وكان يشار إلى البيانات والتصريحات الصادرة عن مسؤولين أجانب (أمريكيين) بشكل مباشر في النصوص الإخبارية:

صحيفة الحياة (19 آذار، مارس، 2003)

... أكد البيت الأبيض أمس تصميمه على إرسال قوات التحالف من ثلاثين دولة إلى العراق من أجل نزع أسلحته المحرمة دولياً...
وأكد المسؤولون الأمريكيون أن الولايات المتحدة "أمطرت" الجنود في جنوب العراق بمنشورات تحتهم فيها على الاستسلام...
أعلن في واشنطن أمس أن إدارة بوش أقامت تحالفاً من أجل نزع سلاح العراق على الفور..."

وبدلاً من اقتباس تقارير هذه المصادر بشكل حريفي، قام الصحفيون (والمحررون) بتفسير البيانات الواردة كما هو مبين في استخدام عبارة "أكد" ("أكد البيت الأبيض أمس" ... "أكد المسؤولون الأمريكيون أن الولايات المتحدة...")، وقد اقتصر اقتباساتهم المباشرة فقط على مقاطع مثيرة للجدل في تصريحاتهم ("الولايات المتحدة (أمطرت) الجنود في جنوب العراق بمنشورات...").

كما أن المعلومات المتسرّبة من واشنطن كانت تنقل بصيغة المبني للمجهول بدلاً من صيغة المبني للمعلوم ("أعلن في واشنطن أمس...")،

بالرغم من أن الأخبار باللغة العربية تبث بصيغة المبني للمعلوم¹⁴. يلغي هذا أكثر فأكثر، دور المصادر الوسيطة (وسائل الإعلام الأجنبية) في الوقت الذي يقرب هذا صحفيي الحياة والشرق الأوسط أكثر من مصادر السلطة والمعلومات.

صحيفة الشرق الأوسط (19 آذار، مارس، 2003)

كما لوحظت حركة هروب جماعية من مدينة أربيل عاصمة إقليم كردستان العراقي، وكذلك من مدن وبلدات قرب مناطق القتال... وفوق هذا وذاك، قال الناطق الرسمي الأمريكي آري فليتشر يوم أمس إنه ليس لدى واشنطن أي مؤشر على أن صدام سيلتزم بالإنداز...

ترد معظم التصريحات المقتبسة من مصادر أمريكية وهو ما يوحي باعترافٍ بالولايات المتحدة كقوة عسكرية وسياسية. من هنا، نرى أن البيانات والتصريحات الصادرة عن جهات أجنبية مؤهلة أكثر من غيرها لصناعة الأحداث المستقبلية؛ وأهم من ذلك، أن تلك التصريحات يتم التمعن فيها أكثر من التصريحات المحلية التي تبدو متوقعة ولا تحمل في طياتها أي مفاجآت.

يمكن أن تعرض هذه السلطة بطريقة نصية من خلال استعمال الزمن القواعدي، وذلك من أجل الإشارة إلى توزيع السلطات بين المتحاورين. تستخدم الصحف العربية مثلاً الزمن الحاضر القواعدي عند الإشارة إلى حديث مباشر يدل به أحد القادة الأمريكيين،

بينما يستخدم الزمن الماضي القواعدي عند الاستشهاد بما صرحت به القيادة العراقية. يمكن أن تكون هذه إشارة إلى السلطة الممنوحة للقيادة الأمريكية في هذا الصراع، كما يمكن أن تكون جزءاً من الخطاب الذي تستخدمه هذه الصحف من أجل وضع إطار للحرب على العراق. وهكذا، فقد استخدمت صحيفة الأهرام صيغة المستقبل القواعدي في نشرها لتصريحات أدلى بها مسؤولون أجنب:

صحيفة الأهرام (19 آذار، مارس، 2003)

قال الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض، آري فليتشر يوم أمس قبل أقل من أربع وعشرين ساعة من إصدار الإنذار، إن واشنطن لم تلاحظ بعد ما يثبت أن صدام سوف يذعن للإنذار، ويفادر العراق. كما أوضح أنه حتى لو وافق صدام وولديه على مغادرة العراق، فإن قوات التحالف سوف تدخل إلى الأراضي العراقية من أجل ضمان نزع أسلحة الدمار الشامل.

وقال فليتشر إن الإنذار سوف ينتهي في الساعة الثامنة من هذه الليلة، بتوقيت واشنطن (أو الثالثة صباحاً بتوقيت القاهرة)، وأن إدارة بوش هي من سيقدر توقيت بدء الحرب.

لدى الحكومة الأمريكية إذاً، الرغبة والقوة لصناعة الأحداث المستقبلية، أي تقرير ما إذا ستقع حرب أم لا، أو تقرير ما إذا كان صدام وولده سوف يبقون في العراق أم لا، وهكذا. المقطوعة التالية هي مثال آخر يبلغ فيه الناطق باسم البيت الأبيض وسائل الإعلام العالمية السيناريو المستقبلي الذي تقوم بإعداده حكومة الولايات المتحدة الأمريكية:

صحيفة الشرق الأوسط (19 آذار، مارس، 2003)

من ناحية أخرى، قالت واشنطن إنها لا ترى أي مؤشر على أن صدام سيلتزم بالإنداز، وأنها تُعدُّ ذلك "خطأً آخر" يرتكبه صدام إذا لم يغادر العراق. وبينما كانت القوات الأمريكية في الكويت تتأهب يوم أمس للهجوم، فقد قال أحد كبار ضباطها إن النصر في العراق سوف يتحقق "في غضون أيام قليلة".

وقال إن قرار صدام البقاء في العراق سوف يكون "خطأً آخر يرتكبه صدام حسين"، واستأنف حديثه قائلاً "إن دوري لا يتضمن ذكر أسماء الدول التي يمكن أن يفر إليها". وقال فليتشر إن قوات التحالف التي شكلتها الولايات المتحدة سوف تدخل إلى العراق من أجل نزع أسلحته، حتى لو غادر صدام العراق.

أما السفير الأمريكي في العراق، زلمي خليل زادة فقد قال يوم أمس، إن الوحدات العراقية الكردية سوف تضع نفسها بتصرف القيادة الأمريكية في حال شن عمليات عسكرية أمريكية ضد العراق.

هذه سلسلة من التصريحات الصادرة عن واشنطن، وهي تشير إلى مجرى الأحداث المستقبلية، مقررة ما سوف يحدث، ومجرية تقوياً للخطوات التي قام بها الخصم ("لا ترى أي مؤشر على أن صدام سيلتزم بالإنداز، وأنها تُعدُّ ذلك (خطأً آخر) يرتكبه صدام"). نسب إلى أحد المسؤولين الأمريكيين التأكيد على تحقيق النصر حتى قبل أن تبدأ المعارك ("إن النصر في العراق سوف يتحقق"), بالرغم

من أن تأكيده على تحقيق النصر " في غضون أيام قليلة " يبدو مثيراً للجدل كون هذا التأكيد هو الوحيد الذي تم وضعه بين إشارتي اقتباس. أما حلفاء الولايات المتحدة، داخل العراق (زلمي خليل زادة) فقد أقرّوا بسلطة الولايات المتحدة، مؤكدين عزمهم " وضع أنفسهم بتصرف القيادة الأمريكية " .

وهكذا، فإن البيانات والتصريحات الصادرة عن قوات التحالف (حول الإستراتيجية العامة للحرب) قد تم اقتباسها بصيغة زمن المستقبل القواعدي زاعمة أن اليد العليا ستكون لها في مجريات الحرب. كما وعد بوش في الاقتباس التالي جنوده، وكذلك الشعب العراقي أن النظام العراقي " سوف " يعاقب وأن يوم العقاب " ليس ببعيد " .

صحيفة الشرق الأوسط (27 آذار، مارس، 2003)

من ناحية أخرى، قال الرئيس بوش يوم أمس إن الحرب على العراق وصلت إلى مرحلة متقدمة إلا أن نهايتها ليست وشيكة. وأضاف مخاطباً الجنود في قاعدة ماكدويل الجوية: " أؤكد لكم وللشعب العراقي الذي عانى طويلاً أن النظام العراقي سوف يخضع للمحاسبة، وأن هذا اليوم يقترب أكثر فأكثر " .

باختصار، يتمثل دور وسائل الإعلام الإخبارية هنا في تنظيم جميع التصريحات السياسية المتوافرة ونسجها ضمن سردية دينامية تتحرك عبر الفضاءات وعبر الزمن، وتدعم هذه السردية بتصريحات صادرة عن الخارج (وخصوصاً من الولايات المتحدة). اعتمدت صحيفتنا

الأهرام والقدس العربي على مؤسسات الوسائل الإعلامية الأجنبية من أجل نقل هذه التصريحات والتعليق عليها وتقويمها، معززة بذلك دور الصحفيين "كمشاهدين".¹⁵ من ناحية أخرى، فضلت صحيفتا الحياة والشرق الأوسط تقديم هذه التصريحات على شكل اقتباسات غير مباشرة من دون أن تذكر مصادر هذه الاقتباسات؛ ومن ثمّ التأكيد على دور مراسليهما بصفتهما جامعي أخبار (كما هو مبين في الخطوط الثانوية المتعددة في بداية كل خبر) وتعزيز دور الصحفيين: "مدققين أو كلاب حراسة". لقد تباهى رئيس تحرير صحيفة الحياة السابق باعتماد صحيفة الحياة على مراسليها في تغطية الأحداث العالمية بدلاً من الاقتباس من رزم إخبارية جاهزية تعرضها وكالات الأنباء الرئيسية¹⁵.

الصحفيون بصفتهم شهداء الحقيقة

من خلال التدقيق في استخدام أسلوب العزو في الأخبار باللغتين العربية والإنجليزية في محطة BBC العربية، قدم شيخ الشباب وسويلز¹⁶ عرضاً لاستخدام سمات العزو، ليس بواسطة الاقتباس من المسؤولين العرب، بل بالاقتباس من مصدرين آخرين هما مراسلو محطة BBC، والخبر نفسه كالقول مثلاً: "تفيد الأنباء." يظهر هذا الاتجاه في النص التالي حيث تميل الصحف العربية إلى الإشارة إلى نفسها كفاعلة في الأحداث:

صحيفة الشرق الأوسط (27 آذار، مارس، 2003)

دخلت (الشرق الأوسط) أمس إلى مدينة صفوان العراقية برفقة قافلة من المساعدات الطبية والغذائية قادمة من الكويت إلى سكان المدينة التي يبلغ عدد سكانها 2000 نسمة تقريباً وهم تحت الحماية البريطانية.

يستلزم ذلك حضور الصحيفة كمؤسسة، كما يتضمن قدرة تلك المؤسسة بشكل عام (وليس الأفراد) على تغطية الحرب. هناك أيضاً احتمال آخر للتأثير الذي تحدثه عملية "مأسسة" دور الصحفي/ الراوي، ويتمثل في إعطاء دفع قوي لموضوعية التقارير من خلال التقليل من الجانب الذاتي عند الصحفيين بصفتهم أفراداً.

صحيفة الحياة (27 آذار، مارس، 2003)

ولكن نائب وزير الخارجية الأمريكي ريتشارد أرميتاج أكد أن القوات الأمريكية "سوف تقوم بكل ما هو ضروري" من أجل قلب نظام الحكم العراقي، حتى لو تطلب الأمر خوض القتال داخل المدن. وقال في مقابلة مع صحيفة الحياة تُشَرَّ غداً...

أظهرت الدراسات السابقة حول الخطاب الصحفي العربي أن الاستشهاد بالمصادر يزيد من مصداقية التقارير الإخبارية¹⁷. ومن ثمَّ تُعدُّ المقبوسات وسائل لإظهار موضوعية المؤسسة الإخبارية من خلال عرض آراء أو تصريحات أدلى بها أحد الأفراد أو بعض الجهات حول موضوعات بعينها. إضافة إلى ذلك، يؤكد فندي¹⁸ أن الثقة في

المجتمعات العربية (والإسلامية) تعتمد على نموذج الإسناد، حيث تقبع سلسلة المصادر وراء تصريحات لها مصداقيتها. وهكذا، فكما أن أحاديث الرسول تروى عبر سلسلة من المصادر الموثوقة، فإن الجمهور العربي يحتاج إلى توثيق المعلومات التي ترد إليه. لكن الإسناد كما تبين سابقاً، لم يشكل إستراتيجية شديدة الأهمية سواء بالنسبة إلى صحيفة الحياة أو إلى صحيفة الشرق الأوسط اللتين تتقلان الأحداث بصيغة المبني للمجهول وأحياناً تستشهدان بمسؤولين أجنب من دون ذكر أسمائهم. ومع ذلك، تؤكد وسائل الإعلام الإخبارية من خلال إضافة الصوت المؤسسي، كما لاحظنا سابقاً، مشاركتها في صناعة الحدث، ومن ثمّ فالإسناد يدل على أن المؤسسة هي صاحبة الدور الرئيس.

الصحفيون إذاً، هم لاعبون نشطون يشاركون في الحدث الذي يظهر أمامهم. وبصفتهم شهود عيان، فإنهم يبحثون عن الحقيقة، وهي مهمة قد تصطدم بمصالح بعض القوى السياسية. ففي الثامن من شهر نيسان، أبريل، سنة 2003، على سبيل المثال، تعرض أكثر مائة صحفي يقيمون في فندق فلسطين ببغداد إلى إطلاق النار من قبل القوات الأمريكية، حيث أدى ذلك إلى مقتل ثلاثة منهم. أدان اتحاد الصحفيين العالمي هذا الهجوم، وطالب بتقديم تفسير لما جرى؛ في الوقت الذي أعلنت القوات الأمريكية أن ما جرى كان على سبيل الخطأ. كان الدافع وراء مقتل أولئك الصحفيين بحسب صحيفة القدس العربي هو مخاوف الأمريكيين من أن تقوم وسائل الإعلام بكشف المجازر التي ترتكبها الولايات المتحدة؛ وكان هذا نوعاً من الدلالة الضمنية على

الثقة التي أوليت للمؤسسات الإعلامية الأجنبية والإقليمية، وقدرتها على فضح الخبث السياسي:

صحيفة القدس العربي، (9 نيسان، أبريل 2003)

زعم المتحدث باسم القاعدة الأمريكية في السيلية في قطر أن قصف الفندق أتى بعد إطلاق أحد القنصاة العراقيين قذيفة (آر. بي. جي.) من بهو الفندق؛ لكنه صحح فيما بعد هذا البيان بالقول إن القنص كان في داخل الفندق.

وبحسب المراقبين، فقد كان الهدف من قصف الفندق، حيث كان يقم الصحفيون إخافتهم وإجبارهم على مغادرة العاصمة العراقية، وهو ما سيسمح للقوات الأمريكية بارتكاب المزيد من المجازر من دون وجود أي تغطية إعلامية.

أقيت ظلال من الشك على البيان السياسي الأمريكي الذي تمت الإشارة إليه بوصفه "زعماً"، كما تم التأكيد أكثر فأكثر على هذه الشكوك عندما "صحح" المسؤول تصريحه السابق مشيراً إلى أن البيان برمته كان اختلاقاً وليس تمثيلاً للحقائق؛ باعتبار أن الهدف الرئيس وراء ذلك كان "إخافة" الصحفيين وثنيتهم عن نقل الواقع؛ ومن ثم فقد تم تصوير السياسة على أنها حجب للحقيقة، في حين أن الصحافة صورت على أنها باحثة عن الحقيقة.

يمنح هذا الخبر صفة الشهداء للصحفيين، وهو ما يؤكد دور الصحفيين بوصفهم مقاتلين (من أجل الحقيقة) ومستعدين للتضحية بحياتهم من أجل هذا الهدف النبيل.

صحيفة القدس العربي، (9 نيسان، أبريل 2003)

نتج عن هذه الضربة التي قابلها سخط ودهشة عالميين، استشهاد
مراسل الجزيرة، الزميل طارق أيوب، بالإضافة إلى مصور وكالة
رويترز، وجرح عدد آخر من الصحفيين.

تمت الإشارة إلى مراسل الجزيرة طارق أيوب بصفته "زميلاً"؛
ومن ثمّ فقد تم وضع جميع الصحفيين ضمن بوتقة "جماعة" واحدة.
وهذا يحدث عندما تتم مخاطبة إحدى المجموعات بصفقتها تشكل
جماعة واحدة¹⁹ تتشكل بصورة افتراضية، وذلك بواسطة إضافة
"سلسلة من التكافؤ" بين المرتبة التي يتبوأها الشهيد، وبين بقية
المجموعة. يقف الصحفيون إذاً صفاً واحداً في مواجهة المؤسسة "اللا
عقلانية" (أي السلطة العسكرية) التي تبحث عن وسائل لإسكاتهم.
وهذا الأمر يفترض من دون إثارة أي جدل، أن الصحفيين العالميين
كانوا موجودين هناك من أجل تغطية الحرب بطريقة محايدة وغير
منحازة؛ ومن ثمّ تجميل "التدخل المهيمن" في التمثلات الإعلامية
النهائية في كل البلدان التي ينتمون إليها.

كان الصحفيون المحليون والأجانب يشكلون جزءاً من هذه
"الجماعة التفسيرية"، في الوقت الذي كان الصحفيون يتعرضون للقتل
والإصابة؛ وبالرغم من انتمائهم إلى بلدان مختلفة ويعملون في وسائل
إعلامية مختلفة، فإنهم كانوا متحدين كجماعة واحدة، أي "كزملاء"
يبحثون عن الحقيقة ويدفعون مقابل ذلك ثمناً غالياً. يتفق في الواقع
نيك غوبنغ من إذاعة BBC العالمية مع مبدأ "الجماعية" عندما يشير

إلى صحفيين آخرين يقومون بتغطية مناطق الأزمات بصفاتهم "زملاء" يواجهون الكثير من الصعوبات ("حيث يتعرضون إلى احتمال الفشل في تحقيقاتهم والجر إلى العدالة")؛ بالرغم من أنه يشير إلى مسألة الأمان، وإلى حقيقة أن الصحفيين لم يقوموا بتغطية أي أزمة كأزمة دارفور مثلاً، بالحماسة نفسها التي غطوا بها الحرب على العراق نظراً للوضع الطائفي الصعب في دارفور²⁰. سوف أعود في موضع لاحق من هذا الفصل لمناقشة الآراء التي أدلى بها غوينغ.

إضافة إلى ذلك، يُعدُّ التعرض للموت في سبيل البحث عن الحقيقة جزءاً لا يتجزأ من طبيعة مهنة الصحفي:

صحيفة الحياة (9 نيسان، أبريل، 2003)

هناك ضريبة لا بد من دفعها في كل الحروب، وتقوم المؤسسات الإعلامية في كل سنة بتعداد ضحاياها من شهداء الحقيقة، الشهود على مآسي الناس الأبرياء التي دمرت حياتهم الآلة الحربية العمياء ونارها الفاضية. لكن ما حدث بالأمس في بغداد كان مختلفاً. فالزملاء الثلاثة، طارق أيوب (مراسل الجزيرة) واثان من المصورين التابعين لوكالة رويترز والتلفزيون الأسباني لم يقفوا شهداء بنيران صديقة، أو بسبب أخطاء فنية. قال أحد الصحفيين الأجانب إنه رأى المدفعية الأمريكية توجه فوهاتهما باتجاه فندق ميريدان فلسطين في بغداد، وتطلق النار أولاً باتجاه ردهة الاستقبال، وبعد ذلك على مكاتب قناة الجزيرة القطرية إضافة إلى مكتب قناة أبو ظبي.

إضافة إلى حتمية الاستشهاد بسبب الأخطاء الناجمة عن عدم اتباع قواعد الحماية على سبيل المثال، فإن هذه الحادثة تختلف عن مثيلاتها بمعنى أن التقرير الإخباري المذكور أعلاه استند إلى شهادة أحد "الصحفيين الأجانب" كدليل على أن إطلاق النار كان مقصوداً، والتأكيد على دور الصحفيين كمعادين للسلطة السياسية التي تستهدفهم من أجل إسكاتهم.

"الاستشهاد" في سبيل الحقيقة يُعدّ جزءاً لا يتجزأ من مهنة الصحافة؛ وهو ثمن لا بد من دفعه وتعداد ضحاياه "سنوياً". يمثل الصحفي هنا دور "شاهد العيان على مآسي الناس الأبرياء"، الذي يجب أن توضع شهادته في إطار من الثقة²¹. يأخذ الصحفيون إذاً على عاتقهم مهمة شرعنة شهادتهم كجزء من عملية تجميع "رأس المال الثقافي والرمزي" في ميدان يتصف بالتنافسية الشديدة. تتعزز هذه المرتبة أكثر فأكثر على القنوات الفضائية كقناة الجزيرة، حيث يميل الصحفيون فيها إلى الظهور على الشاشة، وهم يرتدون سترات واقية وخوذات عسكرية عندما يقومون بتغطية ما يجري في مناطق ساخنة مثل لبنان (بسبب الأزمة الراهنة)، أو أفغانستان؛ ومن ثمّ فهم يظهرون على شكل "أبطال" جدد يتحملون المشاق من أجل إظهار الحقيقة.

تميل صحيفتا الحياة والشرق الأوسط كما أسلفنا إلى تقديم نفسيهما من خلال التأكيد على شبكة مراسليهما؛ وهو دور تعزز أكثر فأكثر في القنوات الفضائية كقناة الجزيرة، حيث يلعب الصحفي دور المعلق على

الأخبار والمقيّم لها. ففي اليوم التالي لسقوط بغداد على سبيل المثال، بثت قناة الجزيرة في نشرة الأخبار الرئيسية تقريراً من العاصمة العراقية، بغداد، أقوم بنقله هنا بشكل مستفيض من أجل إعطاء مثال على السلطة (الجديدة) التي يتمتع بها الصحفي كشاهد عيان، ومقيّم للخبر:

لا يوجد مشهد آخر يفوق نهاية هذا المشهد. فمعركة فندق فلسطين، أو آخر مشاهد الحرب الأمريكية - البريطانية على العراق، لم تستخدم الصواريخ والقنابل، ولم تسفك فيها الدماء، كما حدث يوم الثلاثاء الأسود [عندما قتل بعض الصحفيين، وجرح بعضهم الآخر]. بين الأمس واليوم، يبدو أن كثيراً من الأمور قد تغيرت، وأن الصحافة لم تعد العدو رقم اثنين لجنود المارينز، في الوقت الذي انتقل المشهد من التخريب الأمريكي إلى النصر الحتمي. فقد أحاطت المدفعية الأمريكية فندقاً يتجمع فيه صحفيون ومراسلون لمعظم المؤسسات الإعلامية العالمية التي لم يكن لها هدف من ذلك التجمع سوى نقل رسالة إلى العالم فحواها أن الأمريكيين قد احتلوا قلب بغداد²².

يسرد الصحفي هنا حكاية ذات خلفية تتكون من مشهد تمثال صدام وهو يهوي كرمز لسقوط بغداد والنظام السابق. يطرح الصحفي تساؤلاً حول المؤسسات الإعلامية الأخرى التي تتحلق حول القوات الأمريكية لمساعدة هذه الأخيرة على نقل هذه الرسالة إلى العالم؛ ومن ثمّ فهو يضع مسافة بين قناة الجزيرة من ناحية كمؤسسة إعلامية "محترمة"، والمحطات الإعلامية الأخرى التي وقعت في الفخ الأمريكي،

من ناحية أخرى. مع ذلك، يبقى أن كرامة المهنة الصحفية لا تشوبها شائبة من خلال الإشارة إلى "يوم الثلاثاء الأسود"، وهو اليوم الذي قتل فيه وجرح ثلاثة من الصحفيين من ثلاثة بلدان مختلفة يقيمون في الفندق نفسه. كما تم تصنيف الصحافة على أنها "العدور رقم اثنين لجنود المارينز"؛ ومن ثمّ فقد تم تعزيز دور الصحفيين بصفتهم باحثين عن الحقيقة، وأيضاً بصفتهم شهداء. يؤدي الصحفي هنا دور المراقب والمقيّم للتقدم الذي أحرزه في الحرب، الأمريكيون (الذين انتقلوا من مرحلة "التخريب إلى النصر الحتمي").

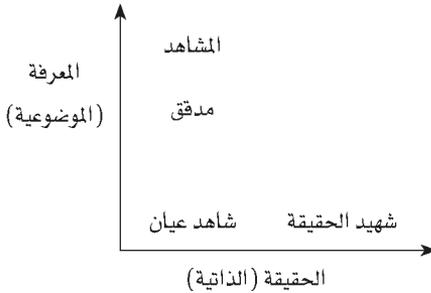
إضافة إلى ذلك، يعمل الصحفي هنا كمراقب يقدم للجماهير وصفاً للمشهد. في الحقيقة، حتى كلمة "المشهد"، تعزز دور الصحفي كوسيط يعيد بناء مشاهد الحرب؛ وهذا الفعل في حد ذاته، هو مزج بين الأحداث الواقعية والعناصر التخيلية. باختصار، يبدو أن مجموعة من هذه الجماعة التفسيرية من الصحفيين وقعت فريسة للهيمنة السياسية الأمريكية؛ ومع ذلك، فإن الجماعة بصفتها كتلة واحدة، تم تأطيرها داخل الإطار نفسه بالإشارة إلى يوم الثلاثاء الأسود، وهو ذكرى سقوط شهداء الحقيقة في مهنة الصحافة.

وهكذا، يظهر التحليل الذي قدمناه آنفاً، ثلاثة أدوار مختلفة:

- 1 - الصحفي بصفته مشاهداً؛
- 2 - الصحفي بصفته مدققاً / أو كلب حراسة؛
- 3 - الصحفي بصفته شهيداً.

بينما تؤكد اثنتان من الصحف المهاجرة هما الأهرام والقدس العربي بشدة على الدور الأول، فإن اثنتين أخريين، هما الحياة والشرق الأوسط، تسلطان الضوء على الدور الثاني. مع ذلك، تتفق الصحف الأربع، ومعها جميع المنافذ الإعلامية الأخرى، على الدور الثالث الذي يضع الصحفيين جميعاً ضمن بوتقة واحدة، على الرغم من التباينات الثقافية فيما بينهم.

نستنتج مما سبق أن التحليل الأنف الذكر كان المقصود منه إبراز الأدوار التي يلعبها الصحفيون بصفتهم جماعة تفسيرية، في توثيق الأحداث، والتنقيب عن الحقيقة، حتى لو أدت بهم مثل هذه المهمات إلى "الاستشهاد" في سبيل تحقيقها. تتركز هذه الأدوار حول اثنتين من المؤشرات التعريفية وهذان المؤشران هما المعرفة (أي المراقبة والتوثيق) والحقيقة (أي القيام بدور المشاهد والمحقق)، وهما مؤشران يمكن اختصارهما في الرسم 1.6.



الرسم 6.1 توزيع الأدوات الصحفية

يمثل محور " المعرفة " المهمات الموضوعية التي تتعلق بمراقبة الواقع وتوثيقه، بينما يمثل محور " الحقيقة " المهمات الذاتية التي تتعلق بمعاينة الأحداث والبحث عن الحقيقة. ويُعدُّ محور الحقيقة الناتج المهجن الناجم عن المزج بين الممارسات الصحفية الأنجلو- أمريكية. أما دوراً شهيد الحقيقة وشاهد العيان فإنهما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بجوهر سرديات الصحافة كمهنة، وهي ما يتقاسمها أفراد هذه المهنة في العالم أجمع.

من ناحية أخرى، يمكن التأكيد هنا على أن محور المعرفة يمثل الدور الذي يقوم به الصحفيون والذي يرتبط به " رأسمال ثقافي ورمزي " له أهميته الخاصة. هذه هي الأدوار التي تميز الصحفيين على الصعيد العالمي، حيث يتمتع بعضهم برأسمال أعلى مما يتمتع به البعض الآخر. بالمقابل، يقرر كم رأس المال هذا حجم السلطة الرمزية من المصدقية التي ترتبط بالمؤسسات الإعلامية والصحفيين العاملين كمراقبين دقيقين لمجريات الحقائق. على سبيل المثال، تُعدُّ كل من وكالة رويترز ووكالة APF مصدرين من مصادر المعلومات الموثوقة (وكذلك في الحقيقة) صحيفتا الأهرام والقدس العربي. يمثل هذا المحور أيضاً الصراع من أجل اكتساب المصدقية بين وسائل الإعلام الإقليمية والمحلية من ناحية، وبين المحطات الإعلامية العالمية، من جهة أخرى؛ وهو صراع من أجل إعادة تحديد موقع ما هو محلي وما هو إقليمي في المشهد الإعلامي العالمي. على سبيل المثال، لم تشر صحيفة الأهرام أو صحيفة الشرق الأوسط إلى الوكالات الأجنبية، لأنهما فضلتا التركيز

على الخطوط الثانوية التي بث عليها الصحفيون التابعون للصحيفتين، والتأكيد على دور هاتين الصحيفتين كجامعتين للأخبار. من الواضح أن الهويات المذكورة أعلاه لا تمثل توزيعاً مثالياً للأدوار؛ لأنها تتداخل وتتنافس فيما بينها بحسب نوع الأحداث التي يتم نقلها.

تُظهر "جماعة الصحفيين التفسيرية" نوعاً من السلطة الهرمية²³، مثلها في ذلك مثل أي ميدان اجتماعي آخر. يشير نيك غوينغ من محطة BBC العالمية على سبيل المثال، إلى الصحفيين في أنحاء العالم كافة باعتبارهم "زملاء"، وهو يؤكد من خلال ذلك هوية مشتركة تجمع بينهم، في الوقت الذي يُذكرنا بالهرمية الموجودة داخل هذه السلطة:

الناس الذين يشاهدون قنوات الجزيرة، والعربية وأبوظبي والكويت في أمكنة مثل منطقة الخليج، يرعون الماشية أيضاً، وهم يلجئون أيضاً إلى محطة BBC لأنهم يقولون إنهم يودون الاطلاع على حقيقة ما جرى فعلاً... لكن الدليل القصصي الذي بدأنا في الحصول عليه، حتى عن طريق الراديكاليين في الشرق الأوسط... يدل على أنهم يستوعبون بطريقة خاصة الطرق الراديكالية في تفسير الأخبار. لكنهم يلتفتون مع ذلك، إلى وجهات أخرى من أجل الحصول على آراء مختلفة حول الأخبار التي يتلقونها. يوجد هناك نسيج مختلف جداً، ولذلك لا تتعاملوا مع الأمر بمثل هذه البساطة²⁴.

بحسب رأي بورردو²⁵، يمكن مقارنة الفضاء الاجتماعي بالفضاء الجغرافي؛ ومن ثمّ فكلما اقترب الصحفيون من بعضهم بعضاً ضمن

فضاء واحد يجمع بينهم، ازدادت الملامح المشتركة فيما بينهم. مع ذلك، "فإن الحقيقة حول أي شكل من أشكال التواصل لا يمكن إيجادها كليةً ضمن منظومة التواصل التي تكشف عن نفسها وتضع نفسها تحت المراقبة." يشير بوردو بشكل خاص إلى ما يطلق عليه "تصنيفات التفوق"²⁶، أو التصنيفات التي يتم تطبيقها عندما ينكر الصحفيون القابعون في موقع أعلى وجود مسافة تفصلهم عن آخرين يقبعون في موقع أدنى؛ بالرغم من أن هذه المسافة تبقى على حالها من دون تغيير. إذاً، ينكر نيك غوينغ وجود اختلاف يفصل بين الصحفيين في أنحاء العالم كافة؛ إلا أن هذه المسافة مع ذلك، لا تختفي. يعترف من ناحية، بدور الصحفيين الآخرين (العرب، على سبيل المثال) كجزء من جماعة الصحفيين العالمية؛ لكنه من ناحية أخرى، يؤكد الاختلافات الموجودة بين الصحفيين استناداً إلى مواقعهم في هرمية السلطة الإجمالية الموجودة في هذا الميدان الخاص (أي، من بين هؤلاء يحوز ثقة المشاهدين).

تهدف المناقشة المذكورة أعلاه إلى المساهمة في الحوار حول الفضاء العالمي العام ودور وسائل الإعلام في تنظيمه وإجرائه. هناك عاملان حاسمان في هذه المناقشة: (1) السلطة التي تتمتع بها وسائل الإعلام العالمية (في أعلى الهرمية الصحفية)، و (2) التناقض الذي يشعر به زملاؤهم (الذين يقبعون في مواقع أدنى في تلك الهرمية) في الدول النامية تجاه مثل هذه الوسائل الإعلامية. دعوني الآن أناقش بدقة هاتين النقطتين.

أولاً، يمكن التأكيد على أن كل ميدان من الميادين العربية سواء في مجال وسائل الإعلام أو السياسة، يستتبط سلطته من موقعه مقابل الميادين الغربية المشابهة. نحن ميالون إلى التفكير في أن وسائل الإعلام العربية تعبر عن الرأي العام وتؤثر فيه من خلال علاقة عرضية. لكنني أود التأكيد هنا على أن الثقة والصورة الإيجابية لوسائل الإعلام تعتمد على الرسالة من جهة، وعلى موقع ناقل الرسالة في الميدان، من جهة أخرى. هنا أصبح رأس المال الثقافي لوسائل الإعلام الغربية في واقع الأمر مُطبَّعاً بحيث يمكن استخدامه كوحدة قياس يمكن أن تقاس بواسطتها وسائل إعلامية أخرى في الدول النامية.

يشير منتقدو فكرة الفضاء العام الهايبرماسية إلى الصيغة المثالية للفضاء العام الذي توطّر ضمنه المرتبة الاجتماعية، ويمكن للمرء أن يزيد على ذلك أن الفضاء المعياري العالمي يؤطر بشكل موازٍ رأس المال الثقافي الذي يمتلكه كل واحد من المشاركين في المؤسسات الإعلامية. يُعدُّ مثل هذا الفضاء العالمي حلبة صراع حول مبدأ الشرعية، وكذلك حول الحضور في المشهد الإعلامي العالمي. يتبوأ الصحفيون العاملون في وسائل إعلامية عالمية موقفاً متقدماً في هرمية السلطة هذه، حيث استطاعوا جعل الحقيقة والمعرفة مشروطة بالخطاب، وبالمؤسسات التي تنتج مثل هذا الخطاب. الفضاء العام ليس مجرد حلبة يتم فيها تشكيل الرأي العام وحسب، بل يستخدم كذلك، من أجل تشكيل الهويات الاجتماعية. كما أننا ننفي وجود أي توتر بين الصحفيين عندما نصورهم كجماعة "تفسيرية" موحدة.

ثانياً، يتسم الدور الهجين للصحفيين بالتناقض مع وسائل الإعلام الغربية في أوساط المهنيين الإعلاميين (وكذلك في أوساط المشاهدين). أشارت صحيفة الأهرام بشكل مباشر إلى بعض المحطات الإعلامية الإخبارية الغربية من أجل إضفاء المصداقية والشرعية على بعض التصريحات السياسية؛ في حين أن صحفاً أخرى مثل صحيفة الحياة لا تطبق مثل هذه الإستراتيجية. يظهر مثل هذا العمل أيضاً في قنوات فضائية جديدة مثل قناة الجزيرة التي أصبح مراسلوها المصادر الرئيسية للأخبار. مع ذلك، يبدو أن قناة الجزيرة تقر بمصداقية محطة BBC في الوقت الذي تشكك بموثوقية محطات تجارية أخرى مثل محطة Fox News²⁷، مشيرة على وجه الخصوص إلى الانتقاد الذي وجهته محطة Sky News لمحطة BBC؛ لأن هذه الأخيرة امتنعت عن استخدام تعبير "إرهابيين" في وصفها للأشخاص المتهمين بالإرهاب.

هذا التناقض شائع أيضاً في أوساط الباحثين العرب؛ ففي تحليله لفضيحة التعذيب في سجن أبو غريب على سبيل المثال، يعتمد كفاف²⁸ على الاقتباس من وسائل الإعلام الإخبارية الأمريكية مثل محطة CBS وصحيفتي واشنطن بوست ونيويورك تايمز باعتبارها المؤسسات المسؤولة عن إثارة النقاش حول التعذيب الذي تعرض له السجناء العراقيون؛ ولكنه يرى مع ذلك، أن توقيت النشر كان يشكل جزءاً من تعاون وسائل الإعلام مع السياسيين، خصوصاً السياسيين الجمهوريين، في أثناء الانتخابات الأخيرة.

عموماً، يساهم التحليل المذكور آنفاً في تحويل عبارة مهمة تستخدم في الأبحاث التي تجري حالياً في مجال الاتصالات، وهي "الهيمنة" إلى مفهوم؛ وتأثير هذه العبارة في عملية الوساطة التي تُعدُّ أساساً متيناً للحوار العام. الهيمنة ليست عملية مباشرة، كما يفترض بعض الباحثين العرب²⁹، حيث تمارس بعض وكالات الأنباء العالمية نفوذها فيما يتعلق بمحتوى الأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام الإخبارية العربية المحلية؛ وهو رأي ينكر وجود علاقات سلطوية. يمكن للهيمنة أن تكون فاعلة من خلال سلطة لم يتم توزيعها بشكل متساوٍ بين الصحفيين الذين ينتمون إلى الجماعة نفسها. وهكذا، يمكن تطبيع دور الصحفيين وتعزيزه في المجال المحلي للصحافة ودورها في المجتمع، كما هي الحال في وسائل الإعلام العالمية مثل محطتي CNN و BBC. إن الاستشهاد بما أوردته وسائل الإعلام الأجنبية كما هو مبين سابقاً، يشكل جزءاً من إستراتيجية الصحف التي تقضي بتصنيف نفسها والتميز بينها وبين الصحف المحلية التي تميل إلى الاقتباس من تصريحات المسؤولين المحليين.

لا يشير هذا إلى احتمال العودة إلى النظرية الماهيوية حول الهيمنة من منظور احتمال قيام هذه الأخيرة بإلغاء كامل للأصالة الصرفة³⁰. الهدف الحقيقي الذي أنشده يتمثل في استيعاب علاقات السلطة ضمن الهويات الهجينة الظاهرة في المشهد الإعلامي العالمي. وكما يذكرنا غيدنز³¹، فإن السلطة ليست بالضرورة مرادفة للإجبار أو القسر؛ بل يمكن أن ترتبط بمفهوم الاعتماد المتبادل. تعمل السلطة إذاً ضمن علاقة جدلية بالرغم من التوزيع غير العادل للسلطة بين مختلف الصحفيين. لا أقترح في هذا المجال تطوير نوع من الفعل ضد مثل هذه الممارسات. إن هدي في يكمن فقط في إبراز الكيفية التي تنتشر فيها السلطة في ميدان الصحافة؛ ذلك أن تحليل وسائل الاتصال يبقى ناقصاً من دون استيعاب مفهوم السلطة.

من المهم أيضاً التدقيق في الموقف المتناقض تجاه وسائل الإعلام الغربية بين المشاهدين العرب، كما يؤكد دالغرين: "لا يبدأ الفضاء العام وينتهي عندما يصل المحتوى الإعلامي إلى المشاهدين. ليست هذه سوى حلقة واحدة من سلاسل في مجالات الاتصالات والثقافة، التي تتضمن الكيفية التي يتم فيها تلقي المخرج الإعلامي واستيعابه واستخدامه من قبل المواطنين"³². تبين الدراسات التي أجريت على المشاهدين المهاجرين في بريطانيا على سبيل المثال، أن المشاهدين الفلسطينيين لا يظهرون سوى قدر قليل من الثقة بوسائل الإعلام العالمية مثل محطة BBC في الوقت الذي تولي ثقة كبيرة بوسائل الإعلام الإخبارية العربية القومية كقناة الجزيرة³³، بالرغم من

حقيقة أن محطات إعلامية مثل محطة BBC كانت موضع ثقة جماهير المشاهدين في منطقة الشرق الأوسط كمصادر إخبارية³⁴. إضافة إلى ما تقدم، يظهر الاستطلاع الذي أجراه مركز الدراسات الإستراتيجية في الجامعة الأردنية سنة 2005 أن العرب المستطلعة آراؤهم يقرون بأن القيم الإيجابية في المجتمعات الغربية لا تجد لها طريقاً إلى سياساتها الخارجية. كانت وسائل الإعلام الغربية تلك موضع ثقة وذات مصداقية بالنسبة للمستطلعة آراؤهم على الأقل فيما يتعلق بالمملكة المتحدة وفرنسا بالرغم من أن من أجري عليهم الاستطلاع لم يظهروا سوى قدر قليل من المعرفة بالحياة الثقافية في المجتمعات الغربية الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية.

إذاً، ما هي الخطوة التالية، بعد أن وصلنا إلى هنا؟ يمكن التأكيد على أن تحليل آلية الفضاء العام في السياق العربي يجب أن يتم على مستويين:

1 - على المستوى العربي- العربي، من أجل تحليل إستراتيجيات الشرعية والهرمية والثقة، كما تم توزيعها على المؤسسات الإعلامية العربية، وكما تمثلت في مواقف المشاهدين من وسائل الإعلام هذه.

2 - على المستوى العربي- الغربي، حيث إن من المهم تحليل الهرمية وعلاقات السلطة بين مختلف الممثلين الإعلاميين الإقليميين والعالميين مقابل الرأي الذي يرى أن الفضاء العالمي خالٍ من المركز أو الهيمنة.

إذا أظهر التحليل المشار إليه آنفاً انتشار الأصوات الإعلامية الغربية في النصوص الإخبارية العربية، فإن على الدراسات المستقبلية أن تبحث في الاتجاه المعاكس؛ أي قبول صورة وسائل الإعلام العربية وصوتها في السياق الغربي: أي متى يمكن الاستشهاد بوسائل الإعلام العربية، ولأي غاية؛ على سبيل المثال، إبراز ردة الفعل على التصريحات السياسية الغربية، وإظهار ردة فعل "الشارع" العربي عليها. إذا كان لوسائل الإعلام الغربية أن تكون لها أي مصداقية، ومن ثم أن يكون لها "رأس مال ثقافي" معتبر، فيجب أن يطرح السؤال التالي: ما هي صورة الإعلام العربي متمثلة في القنوات الفضائية، في الإعلام الغربي؟ هناك عدد من الدراسات حول صورة العرب (التي قدمت على أنها تمثل مجموعة واحدة متجانسة) في السينما³⁵ والأخبار³⁶ الأمريكية، إلا أنه ليست هناك حاجة لتفكيك هذه الصورة الواحدة إلى مجموعات محددة من أجل إظهار كيف يتم تصوير هويات اجتماعية محددة كالصحفيين مثلاً، على هيئة مثيري الشغب، والقلقل، أو مهنيين، أو ملتزمين بميول الناس وانفعالاتهم.



